فكر 2003

حيدر سعيد

ربما لم يكن ثمة عام بدا فيه الفكر قريباً من السياسة بقدر العام (2003)، حاله في هذا حال العامين اللذين سبقاه. ففكر (2003) لا ينفصل عن الحادث السياسي الأكبر لهذا العام، وهو سقوط نظام صدام حسين الدكتاتوري في العراق ،بكل ما استتبعه هذا الحادث السياسي من رهانات وتجريدات ومفاهيم، شكلت فضاء الجدل العالمي: (الارهاب) و(الديمقراطية) و(الهيمنة الأمريكية) و(التغيير الثقافي للعالم) ،و(الإسلام السياسي) ،و(الليبرالية الجديدة) وما الى ذلك.

نوم تشومسكي

يورغن هابرماز

بول ولفوويتز

طارق علي

هكذا كان قدر الاعوام الثلاثة الاولى من الألفية الثالثة، بعد ان كنا نحسب ان فكر هذه الالفية سيكون فكر التقنيات والتقدم التكنولوجي و السبرنطيقا والثورة البيولوجية والوراثية والعوالم الافتراضية وثورة الاتصالات، وبعد ان ترك القرن العشرون في رحم الألفية الثالثة خلاصة الثورة الابستيمولوجية التي عرفتها العلوم الانسانية، والتي قدمت الى مشهد الفكر نمطاً جديداً وحقولاً جديدة وافكار جديدة، ك (اللسانيات) و(البينوية) و(ما بعد البنيوية) و(السيميولوجيا) و(التفكيك) و(العلامة) و(السرديات).

لقد تنبأ هايدغر - في حمّى ثورة القرن العشرين الابستيمولوجية والانطولوجية - ان تكون السبرنطيقا هي فكر المستقبل. ولكن الألفية الثالثة وجدت نفسها أمام مشكل (الثقافة) وصراعاتها وتعدديتها ولهوياتها وحروبها، وجدت نفسها امام تجسد عياني وعنيف لاصطراع ثقافي تمثل في مشهد الطائرات التي ضربت برجي مركز التجارة العالمي في نيويورك في الحادي عشر من ايلول من عام (2001)، فجعلتهما خراباً، واودت معهما بحياة اكثر من ثلاثة آلاف انسان.

فتتح هذا المشهد - بدمويته وعنفه - الألفية الثالثة. واذا كانت هناك بقية من لغة القرن العشرين يقوم عليها رهبان ما بعد الحداثة الذين وصفوا الحادث بأنه (خيال ما بعد حداثي) او بأنه (عنف في الصورة) او من جهة الحروب التي لن تقع ولم تقع، فإن هذه اللغة الباردة سرعان ما انسحبت بعار كبير، لأن الكارثة اكبر من كونها (خيالاً ما بعد حداثي) او (حرب صورة). ان الكارثة تنام، الآن، على الإمضاء السحري الذي تركه عام (1992) راهب آخر. ولكنه اكثر براغماتية واكثر نبوئية واشجع رأياً واكثر صراحة. حين قال ان الحروب التي سيشهدها العالم هي حروب حضارات بالدرجة الاولى.

هنا، سيبدو مخاض الألفية الثالثة كأنه صراع بنوءات نبوءة هايدغر عن السبرنطيقا القادمة الى مركز الفكر، ونبوءة بودريار التي تختزل العالم الى صور وخيال، ونبوءة هنتغتون العفوية عن الصراع الثقافي للعالم.

وستتوزع هذه النبوءات على جسد الثلث الاخير من القرن العشرين، كأنها تريد ان تكون تمهيداً لاهوتياً لفكر الألفية الثالثة.

وستكون التسعينيات، بالذات، هي الساحة الأوفر لصراع هذه النبوءات الثلاث: تقدم التكنولوجيا وظهور امكانية التحكم البيولوجي من خلال هندسة الوراثة والاستنساخ، واكتساح الصورة للعالم من خلال ثورة الاتصالات وتعميم نمط المجتمع الاستهلاكي، هذا كله الذي تزامن في مفارقة غريبة، مع حادثين سياسيين وايديولوجيين كبيرين: انهيار الاتحاد السوفييتي ودول المنظومة الاشتراكية الذي بدا انهيارا للايديولوجيا الماركسية والاشتراكية وانتصاراً للرأسمالية الليبرالية، وقدوم الولايات المتحدة الى المنطقة الإسلامية، مع حرب الخليج الثانية وانتصارها العسكري - بعد انتصارها الايديولوجي على الاتحاد السوفييتي. ومن ثم صعود لحركات الاسلامية وايديولوجيا (الجهاد).

لقد كان يبدو ان هناك كلمة معلقة في الفضاء بحاجة الى من يقولها، وقد قالها هنتغتون بشجاعة: ان الاسلام سيشغل الخانة التي تركتها الايديولوجيا الماركسية والاشتراكية بانهيارها في الصراع مع الرأسمالية الليبرالية، ولكن الصراع لن يكون صراعاً ايديولوجيا، بل صراع حضاري وثقافي. وبعبارة نظرية مجردة: ان صراعات المستقبل ستكون ذات شكل سياسي، ولكن محتواها ثقافي بالدرجة الاولى.

وستكون تسعينيات القرن العشرين هي للقطع الذي يصعد فيه لحن هنتغتون على سواه.

وسيكون المشهد الافتتاحي للألفية الثالثة - مشهد الحادي عشر من ايلول بدمويته وعنفه - مصداقاً لنبوءة هنتغتون، وللفشل الذريع لكل ما سواها نبوءات.

فكرُ حربِ العراق

بهذا المعنى تحديداً، لا ينفصل فكر (2003) عن السياسة، لا لأن الفكر شارح ثانوي للسياسة، بل لأن الفعل السياسي نفسه اصبح - في جوهره - فعلاً فكرياً وثقافياً. وبهذا المعنى ايضاً، ستكون حرب العراق حادثاً فكرياً او لا.

لقد بات معلوماً ان الهدف الاستراتيجي الاكثر اهمية من وراء هذه الحرب هو ضمان امن امريكا، امنها الذي اكتشفت أنه لن يتحقق بإجراءات الحماية و الردع العسكري، بل بتفكيك البنى الثقافية المولدة للعنف، وفي صدارتها ثقافة (الجهاد) الاسلامية التي انتجت خيال الحادي عشر من أيلول. وهذا، بدوره، لن يتحقق إلا بـ (نشر الديمقراطية وتوزيعها على الدول العالم)، وهذا هو المبدأ الأساسي في فلسفة المحافظين الجدد، وهي الجماعة التي تهيمن على الإدارة الامريكية وتصوغ فكرها، من خلال معاهدها البحثية ومنظريها الاساسيين، (بول وولفوويتز، ريتشارد بيرل، دوغلاس فيث، ايوت ابرامز، دانييل بايبس)، الذين يشكلون، الآن، اقطاب الإدارة الامريكية القائمة.

غير ان هناك تعارضاً جوهرياً بين نشر الديمقراطية بوصفه مبدأ، و(نشر الديمقراطية) بوصفه ستراتيجية امنية. فالملابسات المفهومية لفلسفة (المحافظين الجدد) ترجع الى الفيلسوف الامريكي، الألماني الاصل، ليوشتراوس، الذي قدم هذا المبدأ في ثلاثينيات القرن العشرين، بوصفه مبدأ اخلاقياً عاماً، رافضاً نزعة النسبية الثقافية السائدة، وناعياً على الحضارة سقوطها الاخلاقي.

وفي هذا التعارض، تقع الحرب على العراق فهي قد انطلقت من سؤال اساسي: لماذا كان الانتقال الى الحداثة ممكناً في بلدان اوروبا الشرقية، ولم يكن كذلك في الشرق الاوسط؟

لقد صاغ وولفوويتز نظرية عرفت باسم (نظرية الدومينو)، افترض فيها ان اسقاط نظام صدام حسين يعادل - من حيث الاهمية - سقوط جدار برلين، و ان ارساء الديمقراطية في العراق سيعمل على نشر الديمقراطية في سائر بلدان الشرق الاوسط، التي ولكن الديمقراطية لن تكتمل إلا بإعادة بناء مناهج التعليم وتغيير الخطاب الاعلامي المحرض للعنف. ومن ثم، سيجري تدريجياً تذويب الثقافة السلفية الجهادية الاسلامية والحاق مجتمعات الشرق الاوسط بالقيم (العالمية) الجديدة، وبالتالي، ضمان عدم تكرار ذلك المشهد الدموي الذي حدث في الحادي عشر من ايلول من عام (2001)، وضمان امن امريكا.

(اليسار) الامريكي

غير ان هذا التعارض السالف بين الظهير الرسولي لامريكا - الذي يقتنع به الشعب الامريكي، والذي يجعلها تبدو كأنها راع جديد لقيم الخير والحق - و بين الجوهر الاستراتيجي للحض لصراعاتها الثقافية، اعطى للتيار النقدي في الثقافة الامريكية زخماً جديداً واستمرارية مذهلة، هذا التيار الذي لا تزال تشكله الاسماء التقليدية ذاتها نوم تشومسكي، ادوارد سعيد، هوارد زن، وسواهم. فقد حاول هؤلاء ان يكشفوا عن ان ارادة الهيمنة الامريكية ليست ردفعل محضا على الحادي عشر من ايلول، بل ان لها جذوراً اعمق ترتد الى الحرب العالمية الثانية، وتتعزز مع الريغانية وصعود اليمين البروتستانتي الى سدة الحكم في الولايات المتحدة في الثمانينيات، التي كانت اول تجسيد سياسي لفلسفة المحافظين الجدد. وبالتالي، لم تكن احداث الحادي عشر من ايلول الا مسوغاً سياسياً لممارسة الهيمنة من جديد (ينظر، مثلاً، مقالة تشومسكي: السيطرة ومعضلاتها - إدارة جورج بوش واستراتيجياتها الإمبريالية الكبرى - المنشورة في الدورية الأمريكية Boston Review - عدد تشرين الأول / تشرين الثاني - 2003 والتي قدمت جريدة الدى ترجمة عربية لها).

واذا كانت فلسفة المحافظين الجدد و الإدارة الأمريكية القائمة تتشكل في (اليمين)، فإن التيار النقدي الأمريكي يتشكل في (اليسار)، في وقت أعيدت فيه صياغة ثنائية (اليمين و اليسار) بشكل كلي، حيث أصبح (اليمين) يشير إلى الإيمان بواحدية قيم الرأسمالية الليبرالية الغربية وضرورة نشرها والمحافظة على نقاء المجتمعات الغربية، في حين يشير (اليسار) إلى إيمان معارض بضرورة انفتاح الحضارة الغربية على التعدد والاختلاف والهجنة، على الا يشمل هذا المصطلح كل معارضة للغرب، ولا سيما تلك التي تؤمن في داخلها بواحدية قيم أخرى. وهذا الاستثناء يشير إلى الحركات الإسلامية على نحو خاص.

أوربا والولايات المتحدة، الصراع الثقافي الآخر

وفي العموم، لا يلقى التيار النقدي في الولايات المتحدة قبولاً جماهيرياً، في مجتمع صدم بهجمات أيلول، وأصبح - على نحو ما يقول عنه إدوارد سعيد - لا يقبل أي شكل من أشكال التحليل لهذا الحادث، لأنه سيكون تسويغاً له.

وبالتالي، فقد يجد هذا (اليسار) الأمريكي فضاءه الحقيقي في الفكر الأوربي.

غير أن هذا الأخير لا يقدم نفسه بوصفه فكراً (تعديلياً) للمسار الفكري الامريكي، بل إنه معني برسم التمايزات والحدود والخصوصيات بين فكرين وتراثين مختلفين: الفكر الأوربي والفكر الأمريكي، أو (الفكر الأوربي القاري) و(الفكر الأنكلوساكسوني)، على وفق تعبير للفكر الألماني يورغن هابرماز.

ينطلق التحليل الأوربي من اعتبار حادث الحادي عشر من أيلول صدماً بين (أصوليتين): الأصولية الإسلامية والأصولية الأمريكية. وقد بدأ هذا النمط من التحليل للفكر البريطاني طارق علي في كتابه (صدام الأصوليات)، الذي أصدره في العام 2002. ولكن الأمر اتخذ بعداً بحثياً أساسياً عند المفكرين الأوربيين واتجه إلى تحليل المحتوى الديني للسياسة الأمريكية. وفي العام 2003، أصدر المفكر الفرنسي ريجيس دوبري كتاباً حمل عنوان (النار المقدسة)، سعى فيه إلى اكتشاف ما يسميه (الحقد الروحي)، الذي يترسخ في كل أشكال المعتقدات، ولا سيما الأديان، والذي يقود إلى حروب لا تنتهي. والأكثر إثارة في كتاب دوبري هو أنه يكشف عن أن (الدين) لا يزال العامل الأقوى في تكوين العقل الأمريكي، على الرغم من نمط الحياة المادي الظاهر.

لقد حدد الاختلاف الثقافي بين أوربا والولايات المتحدة الخلاف السياسي الراهن حول المسألة العراقية، هذا الخلاف الذي يرجع - كما يقول هابرماز في مقالة كتبها عن سقوط تمثال صدام حسين في بغداد في التاسع من نيسان - إلى الاختلاف بين تراثين حقوقيين: يتمثل أحدهما في النزعة الكوسموبوليتية الكانطية، ويتمثل الآخر في نزعة جون ستيوارت مل الوطنية الليبرالية، وعلى الدرجة نفسها من الصحة كذلك، يمكننا الحديث عن نمطين من أنماط العلمانية: العلمانية الأوربية، والعلمانية الأنكلوساكسونية (أو الأمريكية)، حيث الأولى تفصل بشكل صارم بين الدين والدولة، فيما تقوم الثانية على محتوى ديني أساساً. لقد تنبه عالم الاجتماع الفرنسي توكفيل في كتابه الشهير (الديمقراطية في أمريكا) الصادر سنة 1813 إلى أن الدين هو في صدارة المؤسسات السياسية في الديمقراطية الأمريكية. ولهذا، كان التباين واضحاً في مسألة الحجاب الإسلامي في المؤسسات الرسمية: صرامة الموقف الفرنسي، وتحفظ الموقف الأمريكي.

نحو مجال عام أوربي جديد

لقد توقف المفكرون الأوربيون، بذهول، أمام لحظة الخامس عشر من شباط من عام 2003، حين خرج نحو ثمانية مواطن أوربي في مختلف العواصم الأوربية، يناهضون الحرب القادمة على العراق، كتب عن هذه اللحظة طارق علي في مقالته (إعادة استعمار العراق) (التي نشرها في الدورية البريطانية New Left Review - عدد أيار / حزيران - 2003)، وتوقف عندها - على نحو أخص - هابرماز، الذي نشر في أواخر أيار مقالة سماها (نحو مجال عام جديد)، عد فيها يوم الخامس عشر من شباط أهم لحظة في تأريخ أوربا المعاصرة منذ الحرب العالمية الثانية، ودعا سائر مفكري أوربا إلى الكتابة عنها. فهذه اللحظة هي الوحيدة التي يمكن أن تشكل ما يدعوه (مجالاً عاماً أوربياً جديداً). وسيكون على أوربا - كما يقول هابرماز - أن تلقي بثقلها في الميزان على المستوى الدولي، وأن تتصدى لسياسة الهيمنة الأحادية القطب التي تتبناها الولايات المتحدة، وأن تؤثر - من خلال المنظمات الدولية - في الشكل الذي ستتخذه أي سياسة عالمية في المستقبل.

نقطة ضوء على آخر المشهد العربي

ولكن، كيف تعامل العرب مع هذه التحولات الراديكالية؟

إننا، هنا، لا نستطيع أن نتحدث عن (مجال عام) عربي، على غرار (المجال العام) الأوربي، فليست هناك عواطف واحدة، ولا قيم واحدة، ولا حس مشترك واحد.

- لقد بدا أن الاحتلال الأمريكي للعراق فرصة جديدة لنقد الهيمنة الأمريكية واستئناف الكراهية المستمرة للغرب.

- ومن جهة ثانية، شكل اسقاط نظام صدام حسين فرصة مثلى لاستئناف نقد الدكتاتورية العربية.

- ومن جهة ثالثة، كان سقوط نظام البعث في العراق فرصة جديدة لاستئناف الحديث عن نهاية الأيديولوجيا القومية، أو لرد هذه الفكرة و استئناف خطاب قومي جديد.

وفي كل الأحوال، بدا سقوط نظام صدام حسين نقطة بداية عربية جديدة، ولكن، إلى أين؟ إلى جهاد ضد الغرب الذي عاد إلى بلادنا مستعمر أمن جديد؟ أم إلى بناء سياسة ديمقراطية وقلب التقاليد الدكتاتورية للأنظمة العربية؟ أم إلى قومية جديدة وخصوصية ثقافية جديدة؟

ان الحدث العراقي حدث على هذه الدرجة من الخطورة بكل تأكيد. لقد كتب المفكر الأمريكي، اللبناني الأصل، فؤاد عجمي مقالة في الدورية الأمريكية (Foriegn Affairs) (عدد شهر آذار - 2003)، أشار فيها إلى أن المستقبل العربي سيصاغ على وفق الأنموذج العراقي.

وهكذا، عقد جمهور المفكرين العرب مؤتمراً واسعاً في القاهرة في أوائل تموز، دعوا فيه إلى ما سموه (خطاباً ثقافياً عربياً جديداً)، ينفتح على القيم العالمية ويرفض التطرف الديني.

ولكن هؤلاء المثقفين أنفسهم هم الذين يغذون (العصاب الجماعي الناهض للغرب)، في الفضائيات والصحف ووسائل الإعلام، وهم الذين يزحفون نحو استعادة خصوصيتهم الثقافية المنتهكة.

لقد باتت الذات العربية تتحرك استجابة لـ (الفاعل) الخارجي.

وهي تعيد، الآن، سيرة تمزقها الحديث... هذا التمزق الذي يكشف تمزق طموحاتها ذاتها: من الديمقراطية، والخلاص من الدكتاتورية، والانفتاح على منجزات الحداثة والتكنولوجيا، إلى الحفاظة على الخصوصية الثقافية ومناهضة الغرب.

وبين هذين القطبين، يتشكل المثقف العربي، نسخة تتكرر على مدار قرنين: المثقف السلفي الأصولي الذي يرفض الغرب فكراً أو قيماً وسياسة، والليبرالي المحاكي memic، الذي يقبل بكل ذلك.

ولم يجر تجاوز عتبة هذه الثنائية، ولا أقول التوفيق بين طرفيها.

وسنبقى هكذا بانتظار مجال عام جديد.

ولكن الانتظار قد يطول.

إدوارد سعيد

حيث لم تعد العلاقات ملائمة.
لم يعد صوته ملائماً، لقد أصبح صوت للوسيمار نشاز أي هذا العصر. كان سعيد الراحل الأبرز في العام (2003).
ولكن هذه (الأبرز) هي جزء من بقايا نجومية عاشها، أما هو فقدمات غريباً، في الغرب وعندنا... هناك حيث أتهم بأنه أصولي، ناكر لجميل الغرب الذي احتضنه وآواه، وهنا حيث اتهمناه بأنه أجنبي فنطازي لم يصطل بنار الواقع.
كم نحن بعيدون، إذن عن سعيد/ الفكرة، عن ذلك التوازن الصعب، أن تكون غربياً من دون أن تفقد صوتك النقدي للغرب، وأن تكون شرقياً من دون أن تكون أصولياً سلفياً.
ربما كان هذا التوازن هو ذلك الشيء الذي سماه سعيد نفسه (خارج المكان) ربما.

في ذروة ديموغوجيا الأصوليات والهيمنة والعنف والعنف المضاد، انسحب صوت إدوارد سعيد إلى خلف الشهد... وإلى الأبد... الصوت الأكثر عقلانية في هذا العصر للجنون.
يبدو الآن كأنه قطعة شطرنج خرجت في إحدى النقلات،

شرق وغرب: الشرخ الأسطوري

لعل من أهم الكتب الفكرية التي صدرت في العام (2003) كتاب الدكتور جورج قرم (شرق وغرب: الشرخ الأسطوري)، الذي صدر عن دار الساقي في بيروت. وهو كتاب يحاول أن يتجاوز عتبة الثنائيات الجاهزة: الشرق والغرب، الروحانية الشرقية والمادية الغربية، الأنا والآخر، الإسلام والمسيحية، بل إنه يدحض ما يسميه (الهذيان) في وجود شرخ صارم بين الشرق والغرب، وذلك من خلال نقد الفكر الغربي (النرجسي) - على نحو ما يسميه الدكتور قرم - الذي يمجد، بشكل أسطوري، عبقرية الغرب وتميزه من غيره من الشعوب، وكذلك من خلال نقد الفكر العربي، ولا سيما الحركات السياسية الإسلامية التي تميل إلى التجاوب والتناغم مع الطروحات الغربية حول انقسام العالم إلى شرق وغرب لا يمكن أن يلتقيا، وبالتالي،

ينظر كل من هذين الطرفين إلى التأريخ بأنه جامد، يتمحور فقط حول التعصب الديني والعرقي. وهكذا، تأججت مقولة (صراع الحضارات) بين مخاوف الغربيين من سقوط (حضارتهم) بأيدي (البرابرة) الشرقيين، ومخاوف الفكر العربي من الثقافة الغربية وفشله في فهم تعقيدات هذه الثقافة.

صوت مايكل مور

ربما لم يتح لليسار الأمريكي أن يرفع صوته في وجه الهيمنة الأمريكية بقدر ما أتيح للمخرج مايكل مور، الذي كان الصوت المعارض الأكثر دوياً في العام (2003) فقد حول مور حفل توزيع جوائز الأوسكار في أواخر آذار الفائت - بعد عدة أيام من بدء الحرب على العراق - إلى احتفال جماعي بنقد إدارة بوش. وقد أصدر مور بعد ذلك، كتابين يصبان في الاتجاه نفسه، وفي الفكرة العامة السالفة لليسار، ويحاولان أن يدافعا عن وجه آخر لأمريكا. والكتابان هما (رجال بيض أغبياء) و (أين وطني؟). وقد لاقيا رواجاً كبيراً على المستوى العالمي.